موقف الإمامِ الرضا عليه السلام من ولاية العهد

الأستاذ المساعد الدكتور فاطمة فالح جاسم الخفاجي
كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، العراق
dr.fatima.f.Jasim@utq.edu.iq

The position of Imam al-Ridha (peace be upon him) regarding the mandate of the Covenant

Dr. Fatima falih Jasim Khafaji
Assistant professor, College of Education for Human Sciences,
University of Dhi Qar, Iraq

الملخص:-

إن ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام من المحطات السياسية الخطيرة، التي أحدثت تحولاً في الأسلوب السياسي العبّاسي تجاه الشيعة الامامية، وأثارة ردود فعل مختلفة من قبل أهل الفكر والسياسة، فكل فسر هذا الحدث بما يفهمه، وكل حلل على حسب إدراكه، وصارت نقطة مهمة في حياة الإمام لمن يتناول ترجمة حياته.

وهناك عوامل دفعت المأمون إلى تغيير السياسة القمعية العباسيّة تجاه العلويين، إذ إن الظروف التي رافقت اختيار المأمون للأمام الرضا عليه السلام ليكون ولياً لعهده لم تكن ظروفاً طبيعية بل كانت هناك دوافع سياسية أملت عليه ذلك في تلك المدة الحرجة التي مرت بها الدولة العباسية والتي سوف نستعرضها خلال البحث، ونتعرف على موقف الإمام الرضا عليه السلام من ولاية العهد. وكان نوع البحث سردي.

الكلمات المفتاحية: الإمام الرضا عليه السلام، ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام، موقف الإمام الرضا عليه السلام من ولاية العهد.

Abstract:-

The mandate of the covenant of Imam al-Rida, peace be upon him, is one of the dangerous political stations that brought about a shift in the Abbasid political style towards the Imamate Shiites, and provoked different reactions from the people of thought and politics. The life of the imam for those who deal with the translation of his life.

There are factors that prompted al-Ma'mun to change the Abbasid repressive policy towards the Alawites, as the circumstances that accompanied al-Ma'mun's choice of Imam al-Rida, peace be upon him, to be his crown prince were not natural circumstances, but rather there were political motives dictated by him during that critical period that the Abbasid state went through, which we will review During the research, we learn about the position of Imam al-Rida, peace be upon him, regarding the mandate of the Covenant.

The type of research was narrative.

key words: Imam Al-Rida, peace be upon him, the mandate of the Covenant of Imam Al-Rida, peace be upon him, the position of Imam Al-Rida, peace be upon him, regarding the mandate of the Covenant.

المقدمة:

سار الإمام الرضا عليه السلام على النهج الرسالي المحمدي، رفض الظلم، لأن سياسة العترة الطاهرة هي سياسة بنّاءة تعمل على إيجاد الوسائل السليمة لرقي المجتمع وبلوغ أهدافه في الحياة الحرة الكريمة، سياسة تسعى لتحقيق المساواة في ربوعه، والفرص المتكافئة بين أبنائه لوقايتهم من الظلم والحرمان.

إن تسليط الضوء على ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام مجردة عن دراسة الظروف السياسية التي عايشها الإمام يجعل الصورة لا تخلو عن شيء من التشويش، وعدم الوضوح. من هنا نجعل حديثنا، في المقام حول الوضع السياسي الذي عايشه الإمام الرضا عليه السلام، ثم الحديث شيئاً ما حول ولاية العهد والظروف التي دعت إلى إعطاء المأمون ذلك للإمام الرضا عليه السلام.

اقتضت طبيعة الموضوع أن يقسم إلى ثلاث مباحث سبقتهما مقدمة وتلتهما خاتمة، تحدث المبحث الأول **عن: الولادة والنشأة،** في حين خصص المبحث الثاني لدراسة **خلفيات ولاية العهد،** وسلط المبحث الثالث الضوء على **موقف الإمام الرضا من ولاية العهد.**

اعتمد البحث على مجموعة من الكتب التي كان لها إسهام واضح في البحث.

المبحث الأول

الولادة والنشأة

أوّلاً: الولادة

يوجد اختلاف بين المحدّثين الشيعة في تحديد اليوم والشهر والسنة التي ولد فيها الإمام الرضا عليه السلام: فقيل إن مولده كان بالمدينة سنة ١٤٨هـ، وروى الصَّدوق أنّه ولد بالمدينة يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٥٣هـ بعد وفاة أبي عبد الله عليه السلام بخمس سنين. أمّا المحقّق الأربلي فيساند هذا الرأي، ولكن يذكر أنّه ولد في الحادي عشر من ذي الحجّة. وأشار الشيخ الطبرسي إلى القولين ولكن لم يرجح أحدهما. وذكر الذهبي: أنّه ولد بالمدينة في سنة ١٤٨ هـ عام وفاة جدّه الإمام الصادق عليه السلام، وهو الموافق للقول الأوّل[1].

ثانياً: النشأة

نشأ الإمام الرضا عليه السلام بين أحضان بيت أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فهو ابن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، أمّا أمّه فعلى الرغم من وجود الاختلاف في اسمها وكنيتها، فهناك اتّفاق على كونها من أفضل نساء زمانها من حيث العقل والدين. وقيل: تسمّى الخيزران، وقيل: أروى، وتلقب بشقراء النوبية. وقيل أمّه أم ولد يقال لها أمّ البنين وقيل: اسمها تكتم، وقد يرجَّح أن الأخير هو اسمها، وما سبقه ألقاب لها[٢].

ولقد تناهت شخصيّة الإمام الرضا عليه السلام في السمو والجلال حتّى تطرزت بألقاب لامعة، تعكس جوانب مختلفة من أخلاقه وآدابه، منها: الصابر والرضي، والوفي، والزكي، والولي، ونور الهدى، وسراج الله، والفاضل، وقرّة عين المؤمنين، ومكيد الملحدين، وأشهر ألقابه عليه السلام هو الرّضا. وكان يكنى بأبي الحسن[٣].

ـ هو الإمام الثامن من الأئمّة الأطهار، وتوفّي سنة ٢٠٢، ودفن بطوس من أرض خراسان ـ أولاده: قال المفيد الطبرسي وابن شهر آشوب: لم يترك من الولد إلّا محمّد الجواد[٤].

المبحث الثاني

خلفيات ولاية العهد

عاصر الإمام عليه السلام عدداً من الحكام العباسيين، إذ شهد بقية حكم هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ)، ومن بعده ابنه الأمين المخلوع (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ) وأوائل حكم المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) الذي عهد إليه بولاية العهد[٥].

سياسة المأمون مع العلويين:

إن تحوّل السياسة العباسيّة تجاه العلويين في زمن المأمون لم يتمّ صدفة ولم ينطلق من فراغ، كما لم يكن أمراً سهلاً لدقّة الظروف وخطورة الاحتمالات، ولكن لهذا التحول عوامل عديدة نستطيع أن نصنفها إلى قسمين أساسيين، هما[٦]:

أولاً: العوامل الذاتيّة:

ونقصد بها تلك العوامل التي تفاعلت في نفس المأمون ودفعته إلى تغيير السياسة العباسيّة الظالمة تجاه العلويين. وهنا يورد المؤرخون والمحدّثون عوامل عديدة محتملة كان لها دور كبير في التغيير المذكور، وهي:

١- دعوى ميول المأمون للتشيع:

يرى البعض أن منشأ هذا التحوّل في مسار السياسة العباسيّة تجاه العلويين في زمن المأمون يعود إلى ميل ديني عاطفي للمأمون تجاه العلويين،

٢- نذر المأمون:

وهناك من يُرجع هذا التحوّل إلى النذر الذي قطعه المأمون على نفسه بأنه إذا ظفر بأخيه المخلوع فانّه يُخرج الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب.

٣- دعوى حب المأمون للعفو وكراهيّته للانتقام:

والبعض الآخر يُرجع هذا التحوّل إلى عامل نفسي، فيدّعي أن المأمون قد اشتهر بالعفو ومقت الانتقام وكان يكره إراقة الدماء، ومن دلائل ذلك معاملته السمحة للعلويين الذين ثاروا ضدّه،

ثانياً: العوامل الموضوعيّة:

أن قراءة معمّقة لما بين سطور أحداث تلك الفترة تكشف لنا عن تفاعل عوامل موضوعيّة عديدة دفعت المأمون إلى التقرّب من العلويين وتنفيس الاحتقان بين البيتين العلوي والعباسي. ومن هذه العوامل:

١- تعاطف أهل خراسان: ومن الطبيعي والحال هذه أن يأخذ المأمون هذا التعاطف بعين الاعتبار، لذلك ((كانت البيعة لعلي الرضا بولاية العهد ترضي مشاعر أهل خراسان إرضاءً تامّاً، ولاشكّ أن ذلك الدافع كان في مقدّمة الدوافع التي حدت بالمأمون إلى البيعة بالعهد لعلي بن موسى الرضا عليه السلام.

٢- عداء البيت العباسي للمأمون: وهناك من تتبع المجرى العريض لهذا التطوّر وعد من العوامل التي دفعت المأمون إلى التقرّب من البيت العلوي وشيعتهم ما لمسه من

عداء البيت العباسي له.

٣- فشل المعالجة القمعية بحق العلويين: فالمأمون وقد عُرف بالحنكة السياسية فأدرك أن نتائج المعالجة القمعية للشيعة لم تقتصر على الفشل فقط، وإنما كانت تغذّي الاتجاهات الثورية الرافضة للحكم العبّاسي بمزيد من المبرّرات للانتشار والاستمرار، وعليه فالمعالجة القمعية غير مجدية بل تزيد نار الخلاف تأججاً، من هنا أوقف عمليّات المطاردة والإبادة ضدّهم وعمل على تصفية الجوّ المتوتر الذي خلّفته سياسة أبيه معهم، كما أنه أراد القضاء على تذمر العلويين وإيقاف ثوراتهم المستمرة، وقد أوحى المأمون بانتقال السياسة العباسيّة إلى مدار جديد يعيد فيه الحقّ إلى نصابه. وعليه فالعامل السياسي يعد من أقوى العوامل في تفسير التحول الذي أحدثه المأمون في السياسة العباسيّة مع المعارضة العلويّة.

إن عهد المأمون قد حفل بكثير من حركات العلويين، وكانت الحركة الشيعيّة تزداد انتشاراً حتى دب التشيع في أركان الدولة، من هنا أحس المأمون بأن الخطر قد أحدق به، فحاول الإمساك بزمام الأمور في اللحظة الحرجة التي كان يواجهها من تعاظم قوّة العلويين، في مقابل الانقسام الخطير في صفوف العباسيين، فوجد من الحكمة أن يتقرب من العلويين وبلغ تقربه ذروته باستدعاء الإمام الرضا عليه السلام وإناطة ولاية العهد به.

المبحث الثالث

موقف الإمام الرضا عليه السلام من ولاية العهد

إذا أمعنا النظر في النصوص والروايات الواردة بخصوص موقف الإمام الرضا عليه السلام من ولاية العهد نجد أن الإمام قد رفض بشدّة العروض التي قدمها المأمون له لما تتضمّنه من مخاطرة الاعتراف بشرعيّة الحكم القائم، ومساعدة المأمون على التخلص من مصاعبه في ظلّ وضع سياسي متفجر بالانتفاضات والثورات العلويّة، وانقسام حادّ في البيت العبّاسي كما أسلفنا. لقد أدرك الإمام عليه السلام بأنّ المأمون ليس صادقاً في وعده، زيادة على ان هذا الوعد الكاذب غير قابل التحقّق لعدم استقرار الوضع السياسي العباسي من جهة، ولإمكانات الاغتيال المحتملة سواء من جهة المأمون نفسه أو من جهة معارضي ولاية العهد من العباسيين الذين يخشون على سلطانهم ومصالحهم عند انتقال الخلافة إلى العلويين(٧).

زد على ذلك أن الإمام عليه السلام يعلم ما تنطوي عليه خطوة المأمون من خطورة برغبته بإضفاء مسحة من الشرعيّة على حكمه وعدم اقتناعه بفكرة ردّ الحقّ إلى أهله التي يتبجح بها أمام الرأي العام. فالإمام يدرك جيّداً أن المأمون أقدم على ما أقدم عليه تحت ضغط الضرورة، وأنه ينظر للبيعة هذه كخشبة خلاص من الطوفان الجارف الذي ينتظره، من هنا لم يعد يصعب علينا استنتاج رفض الإمام عليه السلام لقبول الخلافة أو ولاية العهد وهما خياران قد عرضهما المأمون عليه، ولم نستغرب تذرع إمامنا بعلل كثيرة ومحاولته استغلال عامل الزمن بإطالة أمد المفاوضات، ولكن المأمون سد عليه جميع المنافذ من جهاتها، واستأصل أسباب الرفض التي أظهرها الإمام عليه السلام تخلّصاً ممّا طرح عليه، وفي النهاية أدرك عليه السلام أنه أمام واقع مفروض لابد له من مواجهته بدلاً من الهروب منه أو تجاهله، خصوصاً وأن هامش المناورة قد ضاق عليه إلى درجة كبيرة، لذا قبل على مضض ولاية العهد، ولكن وفق شروط محدّدة(٨).

إن الإمام عليه السلام لم يقبل ولاية العهد إلّا مضطراً وبعد التهديد والوعيد الشديدين، ويظهر أن المأمون أراد من الإمام عليه السلام أن يكون فريسة سهلة توقع نفسها في براثنه، ولكن الإمام عليه السلام كشف اللثام عن أهداف المأمون وما يختلج بنفسه من نوايا سيّئة وأسقط القناع عن وجهه، حتى قال عليه السلام ذات يوم للمأمون: ((.. إنّي لأعلم ما تريد)) فقال المأمون وما اريد؟ قال: ((الأمان على الصدق؟))، قال: لك الأمان. قال: ((تريد بذلك أن يقول الناس ان علي بن موسى الرضا عليه السلام لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟)) فغضب المأمون ثمّ قال: انّك تتلقاني أبداً بما أكرهه وقد أمنت سطوتي، فبالله أُقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلّا أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلّا ضربت عنقك. فقال الرضا عليه السلام: ((قد نهاني الله تعالى أن أُلقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أن لا أُولّي ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً))، فرضي منه بذلك وجعله ولي عهده على كراهيّة منه عليه السلام بذلك(٩).

وهكذا نجد أن إمامنا وجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مر: إمّا القتل، أو القبول، فاقترح حلاً توفيقيّاً، هو القبول المشروط. أراد أن يوحي للمأمون بأن الأسد قد يقع حبيساً ولكن لا يجعله الأسر عبداً، من هنا حدّد شروطه بحيث لا تضفي الشرعيّة على الحكم القائم، فوجد المأمون نفسه مضطراً إلى قبولها. كما اجرى إمامنا حواراً اقناعياً مع المأمون،

وبدلاً من اذعان الأخير للحقّ والمنطق احتكم إلى القوة ولوّح بها، ولعلّ أوضح وأصرح تعبير عن ذلك ما جاء عن أبي الصلت الهروي: ان المأمون قال للرضا عليه السلام: فاني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك. فقال له الرضا عليه السلام: ((إن كانت هذه الخلافة لك، والله جعلها لك، فلا يجوز لك أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك))، فقال له المأمون: يا بن رسول الله، فلابدّ لك من قبول هذا الأمر. فقال: ((لست أفعل ذلك طائعاً أبداً))، فما زال يجهد به أيّاماً حتّى يئس من قبوله، فقال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تجب مبايعتي لك فكن ولي عهدي لتكون لك الخلافة بعدي[١٠].

لقد أثار قرار القبول ردود أفعال مختلفة في الوسط الاسلامي، وخاصّة الشيعي منه، وسط دهشة المدهوشين وسخط الساخطين وتربص المتربصين، وقد شرح الإمام عليه السلام لخلّص أصحابه ظروف ودوافع قبوله في مناسبات كثيرة، وردّ على الشبهات المثارة بهذا الخصوص، لاسيّما وان ((الرفض)) لو حصل لتفهّمه الخاص والعام، لأنّه ينسجم مع وضعه العام كإمام معصوم وما تتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من مبادئ لا تقرّ التعاون مع الحاكم الظالم وترفض إعطاء الشرعيّة له، ولكن ((القبول)) يحتاج إلى تفسير وتحليل وتهيئة الرأي العام لتقبّله، من هنا جهد إمامنا بنفسه على شرح موقفه والملابسات والظروف التي أحاطت بقبوله كما ردّ الشبهات المثارة والتساؤلات المطروحة. عن الريان بن الصلت، قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له: يا بن رسول الله، الناس يقولون: انّك قبلت ولاية العهد مع اظهارك الزهد في الدنيا ! فقال عليه السلام: ((قد علم الله كراهتي لذلك، فلمّا خيّرت بين قبول ذلك وبين القتل، اخترت القبول على القتل، ويحهم ! أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبيا ورسولاً، فلمّا دفعته الضرورة إلى تولي خزائن العزيز ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أنّي ما دخلت في هذا الأمر إلّا دخول خارج منه))[١١].

وليس ثمة عبارة يمكن أن تقنع الباحث بطبيعة الإمام عليه السلام في ولاية العهد أفضل من جملة ((إنّي ما دخلت في هذا الأمر إلّا دخول خارج منه)) التي علل فيها قبوله لعرض المأمون، ذلك أن مجرّد التهديد بالقتل ـ بما هو تهديد للحياة الشخصيّة ـ ليس سبباً مقنعاً وراء

قبول الإمام عليه السلام بولاية العهد، فلابدّ من البحث عن سبب أعمق من المحافظة على الحياة الشخصيّة وراء ذلك، وأوفق بشخصية الرضا عليه السلام كرجل لا تهمه حياته بقدر ما يهمّه مصلحة الإسلام. وهو في العبارة المتقدّمة قد وفر علينا عناء البحث وكشف بجلاء أنه خرج من العهد بمجرّد دخوله فيه من خلال الشروط التي اشترطها، والتي حرص على مراعاتها والعمل بها على الرغم من محاولات المأمون المتكرّرة باشراكه في أعباء الحكم. وكان الإمام عليه السلام يذكّره على الدوام بالشروط المتّفق عليها، وكان يعي طبيعة الشراك التي ستنصب في طريقه وليس أقلها شأناً وخطراً محاولة إدخاله في جهاز حكم وادارة لم يشكلها هو، ولا يتلاءمان مع توجهاته في الفكر والسياسة والأخلاق(١٢).

ومن الشواهد على ذلك ما جاء عن معمر بن خلاد، قال: قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام: ((قال لي المأمون يوماً: يا أبا الحسن، انظر بعض من تثق به نوليه هذه البلدان التي قد فسدت علينا، فقلت له: تفي لي وأفي لك، فاني دخلت فيما دخلت على أن لا آمر فيه ولا أنهى ولا أعزل ولا اُولي ولا اُشير حتّى يقدمني الله قبلك، فو الله إن الخلافة شيء ما حدّثت به نفسي))(١٣).

من جهة أخرى فإن الإمام عليه السلام لا ينظر لمصلحته الشخصيّة بقدر ما ينظر للمصلحة الإسلاميّة العليا، ولو فرضنا جدلاً أن الإمام رفض الدخول في ولاية العهد فماذا يمكن أن يحدث؟ فبغض النظر عن القتل الذي ينتظره سوف يفتح باباً من البلاء على أتباعه وأهل بيته من القتل والمطاردة والتضييق وما إلى ذلك. أضف إلى ذلك أنه لو قتل ـ على أكثر الاحتمالات ـ فستتعرض إمامة ولده الجواد وهو صغير إلى مخاطر جدية وهي في بدايتها، وعليه بات من السهل أن ندرك أن الإمام عليه السلام كان يوازن بين المعطيات والنتائج المترتّبة على القبول والرفض، واضعاً المصلحة الإسلامية العليا نصب عينه، فرجح القبول على الرفض(١٤).

ولابد من الفات النظر إلى أن الإمام عليه السلام كان لا يتمكّن أن يصرح بالعلّة التامّة لقبوله ولاية العهد حرصاً على عدم كشفها للطرف الآخر وتحمل تبعات ذلك، ولكنّه استعمل أسلوباً بارعاً في تعليله للقبول، وهو أسلوب ((السوابق التاريخيّة)) وترك للسامع أن يستنتج بنفسه ما تتضمّنه من دلالات وما يكتنفها من ايحاءات، وخير شاهد على ذلك ما جاء عن محمّد بن عرفة، قال قلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله، ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟ فقال: ((ما حمل جدي أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول في الشورى))(١٥).

كان عليه السلام يضع المصلحة العليا للإسلام في جميع مواقفه، وكان يطوّر موقفه حسب الظروف المحيطة به وفق هامش المناورة المتاح له. ولذا نجد أن موقفه الأوّل من العرض هو الإباء الشديد والرفض، واعتلّ بعلل كثيرة، فمازال المأمون يكاتبه ويسأله حتّى علم أنه لا يكفّ عنه. وهناك شهادة مهمّة لأبي الصلت الهروي وكان من أقرب المقرّبين للإمام عليه السلام أقسم فيها بأن الإمام لم يدخل العهد طائعاً، قال: والله ما دخل الرضا عليه السلام في الأمر طائعاً، ولقد حمل إلى الكوفة مكرهاً، ثم أشخص منها على طريق البصرة وفارس إلى مرو. وتوجد شهادة جماعيّة من أهل المدينة، التي كان يسكنها الإمام عليه السلام ـ وأهل البيت أدرى بالذي فيه ـ تصوّر الحالة النفسيّة التي كان يعانيها امامنا، وتكشف عن شدة الضغوط التي تعرض لها لكي يقبل ولاية العهد(١٦).

عن غياث بن أسيد، قال: سمعت جماعة من أهل المدينة يقولون: ملك عبد الله المأمون.. فأخذ البيعة في ملكه لعلي بن موسى عليه السلام بعهد المسلمين من غير رضاه، وذلك بعد أن هدّده بالقتل وألح عليه مرّة بعد أخرى، في كلّها يأبى عليه، حتّى أشرف من تأبّيه على الهلاك، فقال عليه السلام: ((اللهم انّك نهيتني عن الالقاء بيدي في التهلكة، وقد أُكرهت واضطررت كما أشرفت من قبل عبد الله المأمون على القتل متى لم أقبل ولاية عهده، وقد أُكرهت واضطررت كما اضطر يوسف ودانيال عليهما السلام قَبِل كلّ واحد منهما الولاية من طاغية زمانه)). ثمّ قبل ولاية العهد من المأمون وهو باك حزين(١٧).

فهذا النصّ يكشف عن درجة الضيق والإحراج والإكراه التي تعرض لها، كما يعزز أسلوب ((السوابق التاريخيّة)) الذي اتبعه في سبيل تبرير قبوله بولاية العهد، وكنّا قد أشرنا سابقاً بأنّه علل حمله على القبول كما حمل جدّه أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول بالشورى، وفي هذا النصّ يبرر اضطراره كما اضطر يوسف ودانيال عليهما السلام على قبول الولاية من طاغيتي زمانهم. وكان الإمام عليه السلام في كلّ مناسبة يكشف عمّا يجيش في نفسه من مشاعر الألم والحسرة ويعبّر عن تبرمه وتذمره من هذه البيعة المفروضة، وتغلف وجهه سحابة من الحزن والمرارة: عن ياسر الخادم، قال: كان الرضا عليه السلام إذا رجع يوم الجمعة من الجامع وقد اصابه العرق والغبار رفع يديه، وقال: ((اللهم إن كان خروجي ممّا أنا فيه بالموت فعجّله إلى الساعة))، ولم يزل مغموماً مكروباً إلى أن قبض(١٨).

وممّا زاد من وطأة الإحساس بالضيق والظلم أن المأمون دسّ عيونه وآذانه لمعرفة تحرّكات الإمام وأخذ الجواسيس يحصون عليه أنفاسه، ويحجبون عنه شيعته ومواليه، فقد روى الصدوق أن هشام بن ابراهيم الراشدي الهمداني كان ينقل اخبار الرضا عليه السلام إلى ذي الرياستين والمأمون، فحظي بذلك عندهما، وكان لا يخفى عليهما من أخباره شيئاً، فولاه المأمون حجابة الرضا عليه السلام فكان لا يصل إلى الرضا عليه السلام من أحبّ وضيق على الرضا عليه السلام وكان من يقصده من مواليه لا يصل اليه، وكان لا يتكلّم الرضا عليه السلام في داره بشيء إلّا أورده هشام على المأمون وذي الرياستين. ولا يخفى ان من أهداف المأمون عزل الإمام عليه السلام عن شيعته ومواليه ووضعه تحت الاقامة الجبريّة في خراسان تحت نظر السلطة وسمعها، وعزله عن القاعدة الجماهيريّة. وقد فشلت هذه السياسة فشلاً ذريعاً، فبدلاً من أن تتقلص شعبيّته لمشاركته بالحكم ولإظهاره من قبل السلطة بأنّه لم يكن زاهداً في الحكم، وانطلاء هذه الحيلة على البعض، فقد ازدادت شعبيّته، وحاول خرق الحصار المفروض عليه فاستطاع التواصل مع أوساط لم تكن لتجرؤ على الاتّصال به[١٩].

من جانب آخر حاول المأمون احراج الإمام عليه السلام أمام علماء الأديان والمذاهب والملل، والانتقاص من قدر ومنزلة الإمام واظهاره بمظهر العجز عن الإجابة فلما قدم علي بن موسى الرِّضا عليه السلام إلى المأمون أمر الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصّابئين والهربذ الأكبر وأصحاب زردشت وقسطاس الرُّومي والمتكلّمين ليسمع كلامه وكلامهم، فجمعهم.. قال الحسن بن محمد النَّوفلي: فلمّا مضى ياسر التفت الرضا عليه السلام إلينا، ثمَّ قال لي: ((يا نوفليّ أنت عراقيّ، ورِقةُ العراقيِّ غيرُ غليظة، فما عندك في جمع ابنِ عمِّك علينا أهل الشرك وأصحاب المقالات؟)) فقلتُ: جُعلت فداك يريد الامتحان ويُحبُّ أن يعرف ما عندك، ولقد بنى على أساس غيرِ وثيق البنيان وبئس والله مابنى.. فقال لي: ((يانوفليُ، أتحبُّ أن تعلم متى يندم المأمون؟))، فقلتُ: نعم. قال: ((إذا سمع احتجاجي على أهل التَّوراة بتوراتهم، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم، وعلى أهل الزَّبور بزبورهم، وعلى الصّابئين بعبرانيتهم، وعلى الهرابذة بفارسيّتهم، وعلى أهل الرُّوم برروميَّتهم، وعلى أصحاب المقالات بلُغاتهم، فإذا قطعتُ كلَّ صنف ودحضت حُجَّتَهُ وترك مقالتهُ ورجع إلى قولي، عَلِمَ المأمونُ أنَّ الموضع الذي هو بسبيله ليس هو بمستحقٍّ له، فعند ذلك تكونُ النَّدامةُ منهُ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليِ العظيم))[٢٠].

ولما دحض الإمام عليه السلام حججهم وأفحمهم ازدادت مكانته عند العلماء وذاع صيته، وبذلك تجنب الإمام عليه السلام الوقوع في جميع النتائج السلبيّة لقبوله البيعة، فلم يمنح الحكم الشرعيّة المطلوبة، وبقبوله حال دون حدوث تغيير في القيادة لخط أهل البيت عليهم السلام في فترة حرجة، وكان من الممكن أن يؤدي امتناعه إلى دعاية واسعة النطاق ضدّه بزعم أنه فوت فرصة ثمينة لا تقدّر بثمن، كما أن الرفض قد يؤدي إلى الفتنة والبلبلة داخل الكيان الشيعي، كأن يثار سؤال كبير: لماذا لم يقبل الخلافة أو ولاية العهد وقد عرضتا عليه؟! بدل السؤال الذي أثاره البعض بعد قبوله: لماذا قبل؟،أضف إلى ذلك أن الإمام عليه السلام قد حال دون حدوث موجة جديدة من الارهاب والمطاردة والقتل ضد العلويين من جديد، كما أحدث بقبوله انقساماً حاداً في الصف العباسي لعدم قبول العباسيين بولاية العهد هذه خوفاً من انتقال الخلافة إلى البيت العلوي، وهكذا نجد ان امامنا قد نجح من نقل المواجهة من طابع الدفاع والتوقيّ إلى حالة هجوميّة تشمل التصدّي والاختراق والانطلاق حسب ما تسمح به الظروف، فترسخت الحالة الشيعيّة في زمانه واشتدّ ساعدها. ونتيجة للمعطيات الايجابيّة تلك عمل المأمون على التخلّص من هذا الوجود الذي أقلق عليه هدوءه، خصوصاً بعد أن أدرك بأن فصول الرواية التي أعدها من قبل قد اكتملت ولم تسفر عن النتائج المرجوة منها[٢١].

الخاتمة:ـ

- كانت دعوة المأمون للإمام الرضا عليه السلام بعد سنتين من تولّيه السلطة. وكان يكاتب الإمام عليه السلام ويراسله ويضغط عليه من أجل قبول ولاية العهد. وكان الإمام يمانع ولم يبد قبولاً، حتّى استجاب للمأمون تحت ضغط التهديد بالقتل، وكانت بينهما مخاطبات استمرّت حوالي شهرين.
- قبل الإمام عليه السلام ولاية العهد بشروط، بعد أن هدّده المأمون بالقتل، ومن هذه الشروط: أن لا يأمر ولا ينهى ولا يقضي ولا يغيّر شيئاً ممّا هو قائم. وفعلاً فإنّ الإمام الرضا عليه السلام حتّى وقت استشهاده بالسمّ لم يتدخّل في أمور الدولة إلا بمقدار ما كان فيه خدمة للعامّة. وكان المأمون يهدف من تولية الإمام عليه السلام ولاية العهد إلى أهداف متعدّدة أهمّها.

١. تهدئة الأوضاع المضطربة.

٢. محاولة إضفاء الشرعيّة على حكمه وسلطته.

٣. محاولة التضييق على الإمام الرضا عليه السلام وحجبه عن قواعده في المدينة والعراق.

٤. إضعاف المعارضة وخصوصاً الشيعيّة منها.

- ومع كلّ ذلك فالإمام عليه السلام عمل على إفشال ما خطّط له المأمون، حيث تمكّن من تعبئة الجماهير المؤمنة بقيادته فضلاً عن فضح السلوك المنحرف للسلطة العبّاسيّة في مناسبات عديدة، كما تمكّن الإمام عليه السلام من إحياء سنّة جدّه صلى الله عليه وآله وآبائه الكرام عليهم السلام.

هوامش البحث

(١) عباس الذهبي، الإمام الرضا عليه السلام سيرة وتاريخ ص ٢٣ ـ ٣٨.
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه؛ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الرضا عليه السلام، ج١، قم، ١٣٧٢ش، ص٢٣-٢٦.
(٤) محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، ط٤،د.م، ١٩٧٩، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢.
(٥) عباس الذهبي، المصدر السابق، ص ١٠.
(٦) المصدر نفسه، ص١٧٣-١٨٢.
(٧) عباس الذهبي، المصدر السابق، ص: ١٨٠ - ١٨١.
(٨) المصدر نفسه، ص١٨١-١٨٢.
(٩) عباس الذهبي، المصدر السابق،ص١٨٢-١٨٣.
(١٠) المصدر نفسه، ص١٨٣-١٨٤.
(١١) عباس الذهبي، المصدر السابق، ص١٨٤.
(١٢) المصدر نفسه، ص١٨٥.
(١٣) عباس الذهبي، المصدر السابق، ص١٨٥.
(١٤) المصدر نفسه، ص١٨٥- ١٨٦.
(١٥) المصدر نفسه، ص١٨٦.
(١٦) عباس الذهبي، المصدر السابق، ص١٨٦-١٨٧.
(١٧) المصدر نفسه، ص١٨٧.

(١٨) المصدر نفسه، ص١٨٧-١٨٨.
(١٩) عباس الذهبي، المصدر السابق، ص١٨٨-١٨٩.
(٢٠) المصدر نفسه، ص١٨٩.
(٢١) عباس الذهبي، المصدر السابق، ص١٩٠.

قائمة المصادر والمراجع

١- باقر شريف القرشي، حياة الإمام الرضا عليه السلام، ج ١،قم،١٣٧٢ش.
٢- عباس الذهبي، الإمام الرضا عليه السلام سيرة وتاريخ.
٣- محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، ط٤،د.م، ١٩٧٩.